السلفية بين النظرية والتطبيق

الدكتور أشرف الساعي

لا تحاكم الأفكار إلى تحققها في الواقع دون قيود؛ فذلك أمر غير موضوعي، فالدين في صورته النقية اكتمل تشريعًا وبيانًا، لكن بعض أحكامه بقيت معلقة لموانع تتعلق بالواقع وحياة الناس؛ فرسول الله محمد ﷺ لم يبن الكعبة على قواعد إبراهيم لحداثة عهد الناس بالجاهلية، ومات ولم يفعل ذلك، لكنه بينه، وأرشد إليه، وتمنى ﷺ أن يفعل عبادات ثم وافاه الأجل قبل ذلك.

والخلافة الراشدة ما كانت لتخرج في صورتها النهائية إلا بعد وفاة النبي ﷺ؛ لأن هذا شرط قدري في وجودها، لا يمكن أن تسبقه.

ثم قس على ذلك سائر أحكام الشرع عند من يريد تطبيقها من المكلفين، فلا يمكنه القيام بها بمفرده؛ لأن منها ما لا يتحقق إلا بوجود الجماعة المعينة عليه، ولا يمكن مساءلة الفرد عنه ما دام لم يقصر في الأسباب التي تؤدي إليه.

وتطبيق الإسلام النقي هو غاية كل مسلم ومبتغاه، فردًا كان أو جماعة، وإذا استثنينا جيل الصحابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ؛ فإن صورة الإسلام لم تتكرر في الكون بعدهم على نحو ما كان عندهم، ولا توجد طائفة أو مذهب استطاع أن يطبق كل يتمناه، فحسبه من النجاح أن يطبق أغلبها وأصولها، ولا يعاب عليه بعد ذلك ما وقع من تقصير؛ لأنه إذا لم يقع؛ فإنه ادعاء لعصمة الجماعة، وهو ادعاء يخالف أصول الشرع.

ومن ثم؛ فإن السؤال الملح الذي كان ينبغي أن يطرح على كل المناهج هو سؤال الإمكان وليس سؤال الوقوع، ومن بين من ينبغي أن يطرح عليهم هذا السؤال السلفيون، لكن الخصومة العقدية والمنهجية والسياسية تجر أصحابها دومًا إلى الأسئلة التعجيزية؛ لتبتعد بذلك عن الموضوعية، في زمن يغيب الإسلام، وتندحر فيه دولته، ويتحكم في العالم الرعاء الحطمة؛ ومن بين

السلفية



السلفية

هذه الدعاوى التعجيزية:

عجز السلفيين عن تطبيق أفكارهم وبرنامجهم الدعوي ومشروعهم الحضاري:

يحمل السلفيون مسؤولية غياب منهجهم عن الواقع وعدم قدرتهم على تطبيقه، دون مراعاة للواقع والموانع التي تحول بين الناس وبينه، وهي موانع لا يمكن تجاوزها بين عشية وضحاها.

ولذا؛ فإنه قبل أن يقال: إن السلفيين عجزوا عن تطبيق برنامجهم وتحقيق مشروعهم؛ فإن السؤال الصحيح أن يقال: هل في المنهج السلفي ما يستحيل تطبيقه لو أتيحت له الفرصة الطبيعية؟ وهنا يأتي الفحص للأصول الكبرى وإمكان تحققها في الواقع.

فحين ننظر إلى مكونات الدعوة السلفية نجد أنها مكونات موضوعية، وهي كالآتي:

المكون الأول: النظرة للكون وللحياة:

فهذا أشمل المكونات وأعمها وأخطرها؛ كما أنه أدقها؛ لأن جميع القضايا تندرج تحته، فالسلفية ترى أن الكون بسمائه وأرضه وجميع مخلوقاته هو مخلوق لله سبحانه وتعالى، والمخلوقات من غير الإنسان خلقت من أجل الإنسان، وهذا ما صرح به القرآن في أكثر من آية، فقال سبحانه: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ [إبراهيم: ٣٣]، وقال: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتُۢ بِأَمْرِهِۦٓۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [النحل: ١٢]، وقال: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: ١٣]، وقال سبحانه: ﴿وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ﴾ [الرحمن: ١٠].

وهذا التسخير هو لمقاصد عظيمة تندرج تحت ثلاثة أصول: ابتلاء الإنسان، والعبودية لله تعالى، وعمارة الإنسان للأرض.

ومن ثم؛ فإن الحوادث في الكون كلها لا تخرج عن هذه المقاصد، ومن هنا يرى السلفيون أن بعض ما يجرى على الإنسان يكون أحيانًا من باب الابتلاء، ومن مقاصد الابتلاء: التمحيص أحيانًا، أو الاستدراج، أو العقوبة، كما أن التكاليف الشرعية لا تخرج عن مقصد العبودية، وإصلاح الأرض وإعمارها.

أما النظرة للحياة؛ فهم يرون أن هذه الحياة قصيرة وفانية كما نطقت بذلك النصوص، وعليه؛ فمكانة الحياة الدنيا إنما هي تبع لما يترتب عليها في الآخرة، فلا يشيدون بإنجاز

دنيوي بحت لا يخدم الآخرة؛ فلذا لا تجدهم يقفون بإجلال لأرباب الصناعات، ولا لأهل العلوم الدنيوية التي يستغنون بها عن الآخرة، فقارون ليس محل إشادة في القرآن؛ لأنه حاول الاستغناء بعلمه عن الآخرة: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ أَوَلَمۡ يَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَهۡلَكَ مِن قَبۡلِهِۦ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مَنۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُ قُوَّةٗ وَأَكۡثَرُ جَمۡعٗاۚ وَلَا يُسۡـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾ [القصص: ٧٨]، وقال سبحانه: ﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ضُرّٞ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلۡنَٰهُ نِعۡمَةٗ مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمِۭۚ بَلۡ هِيَ فِتۡنَةٞ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [الزمر: ٤٩].

ومع ذلك، فالحياة لا بد من إعمارها بما يصلح الدنيا والآخرة، ويحقق للمجتمع المسلم الاكتفاء والرفاهية المنضبطة، ويجعل المسلمين سادة الدنيا ليدخلوا الناس في الدين القيم، ويخرجوهم من الظلمات إلى النور.

المكون الثاني: قضايا المعتقد:

وهي ما يحصل به معرفة العبد لربه، أو القدر الذي إذا جهله الإنسان كان جاهلًا بالدين، وقد ربط القرآن بين الإيمان والعمل فلا وجه لوجود صورة نظرية لا تثمر عملًا في حياة الفرد والمجتمع، فالإيمان صلاح للمجتمع وسبب في حصول كثير من الخيرات والبركات، قال سبحانه: ﴿وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَفَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَرَكَٰتٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذۡنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٦]، وقال سبحانه: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ وَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ [النور: ٥٥].

فقاعدة الحياة عند السلفيين: أنه لا تحصل سعادة في الدنيا والآخرة إلا بالإيمان والعمل الصالح، وأي إهمال للمعتقد يعد تفريطًا في إصلاح المجتمع وخيانة للأمة.

المكون الثالث: مصادر التلقي:

هذا مكون رئيس من مكونات المنهج السلفي، وهذه المصادر محصورة في الكتاب والسنة والإجماع والقياس، وما تعارف عليه أهل العلم من السلف من قواعد أصولية وفقهية وأقيسة معتبرة، ولا تتم أي عملية إصلاحية في الدين والدنيا إلا بالرجوع إلى هذه المصادر والنظر فيها ومحاكمة ما يصدر عن البشر إليها.



وبعد هذا العرض المجمل فإن السؤال الذي يجب أن يطرح: هل في هذه المكونات شيء يستحيل تطبيقه؟ والجواب بطبيعة الحال: لا.

لكن حين يأتي السؤال الذي يصفه المخالفون بـ(الصادم)؛ وهو: لماذا لم تطبق هذه المكونات ما دامت غير مستحيلة التطبيق ولا بعيدة المنال؟!

وعندئذ يأتي الجواب المفصل المفحم:

فقضايا المعتقد والسلوك هي غالبة -ولله الحمد- وظاهرة، والسلفيون يتبنونها ويدعون إليها، وقد استطاعوا نشرها، ودحضوا كل ما يخالفها، وبينوها، رغم تعاضد الطوائف عليهم، وتناصرها، فالعلماني الملحد يضع يده في يد الصوفي الخرافي، وفي يد الشيعي الغالي؛ ليحاربوا السلفية النقية ومعتقدها الصافي، وهذه الحرب قد يئسوا من أن تكون علمية؛ لأن قدراتهم لا تخدمهم، ولذلك جعلوها إعلامية دعائية، والواقع لا يحتاج معه إلى مثال، وهو أكبر برهان؛ فالحرب الإعلامية قائمة على قدم وساق، ومنع السلفيين من الوصول إلى المنابر الإعلامية لا يخفى على متابع أو مراقب أو محلل أو خبير.

أما بالنسبة لقضايا الفقه، فقد نجح علماء الدعوة السلفية في تأصيل قضايا الفقه، وإرجاع الناس إلى المنبع الأول، والعلو على أقوال متأخري أهل المذاهب، ممن جعلوا المعتمد هو ما يقرره شراح المختصرات من المقلدة، فقد قامت الدعوة السلفية بإرجاع المذاهب إلى أقوال الأئمة الأوائل وعرضها على الوحي وتأصيلها.

أما قضايا النظام والحكم والسياسة؛ فالسلفيون وفروا أغلب مراجع السياسة الشرعية، وبينوها أكمل بيان، ودفعوا عنها الشبه كما بينوا إمكانها، والذي يمنع من تطبيق المشروع السلفي هو: طبيعة الأمة وضعفها، وانتشار أهل الضلال وتمالؤهم ضد الحق؛ لكن ذلك لم يمنع السلفيين من المجابهة وإبداء الرأي ولو في حدود المتاح، وهو التعبير عن الرأي الشرعي للأحداث والمستجدات، والوقوف عند الإمكان مع الأمل في المطلوب، والله الهادي إلى سواء الصراط.

علماء السلف يثبّت بعضهم بعضًا في الفتن

قال أبو زرعة رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«كتب إلي إسحاق بن راهويه -في محنته- قال: «لا يهولنك الباطل؛ فإن للباطل جولة ثم يتلاشى».

«الجرح والتعديل» (١/٣٤٢).

وكتب محمد بن يحيى الذهلي إلى أبي زرعة الرازي:

«اصبر؛ فإن للباطل جولة، ثم يضمحل».

«سير السلف» للأصبهاني (١٢٤٠).